

بات موقف مؤرخ القاعدة، مصطفى حامد (أبو الوليد المصري) صعباً أمام حركة طالبان بعد المواجهات العسكرية بين أفغانستان وإيران التي تؤويه هو وزوج ابنته، سيف العدل، زعيم تنظيم القاعدة، فكما كان متوقعاً لم يستطع الرجل أن يوائمه طويلاً بين إظهار الولاء لطالبان وإيران معًا في نفس الوقت؛ فهو يكتب في مجلة الصمود التي تصدرها الحركة الأفغانية، وينشر فيها سلسلة مقالات عن سيرة جلال الدين حقاني أحد أبرز رموز الحركة الراحلين. كما يُظهر من خلال حسابه على موقع التواصل الاجتماعي "تويتر" وموقعه الشخصي "مافا الإيراني" أنه موالي لطالبان ومنحاز لصفهم، ويدافع عن مواقف "الإمارة" وسياساتها بمنتهى القوة والبلاغة، لكن لما حانت لحظة الحقيقة ظهر انتقامه الأساسي، وسقط القناع الذي طالما ارتداه طويلاً لكنه عجز عن الوقوف محايدها حين اشتعلت المواجهة وانطلقت المدافع من الجانبين وسالت الدماء فكان لابد له هنا من الانحياز إلى أحدهما، مما يجعل مستقبله مع طالبان على المحك. ومثلت لحظة المفاصلة هذه خبراً سيّاً أيضاً لصهره، زعيم تنظيم القاعدة، على اعتبار أنه من غير المقبول أن تستمر العلاقات بينه وبين حكام أفغانستان وهز يقيم بين ظهراني أعدائهم؛ فقد هدد ناصر بدري، القيادي البارز في طالبان، في مقطع فيديو نشره على "تويتر"، قائلاً إن جنود حركته سيقاتلون إيران بحماس أكبر من قاتلهم للأمركيان، الأمر الذي من شأنه أن يقلّب حسابات تنظيم القاعدة رأساً إن لم يتم تدارك الأمور بين الدولتين اللتان كانت تجمعهما مصلحة مشتركة للتعاون ضد الأمريكيين فلما رحلوا عن أفغانستان زالت تلك المصلحة وأصبحت إقامة هؤلاء في إيران ورطة كبيرة، سقط قناع مصطفى حامد. مع توثر العلاقات بين إيران وأفغانستان بسبب الخلاف على تقاسم مياه نهر هلمند، تطور الموقف العسكري على الحدود وحاولت طهران إرهاب جيرانها الشرقيين لكنها فوجئت بردهم القاسي قبل أن يتم الاتفاق على هدنة مؤقتة. وتتهم طهران الأفغان بحجز المياه عنها عمداً، لكنهم ينفون هذه التهمة ويفسرون نقص الإمدادات بوجود جفاف في منبع النهر قلل كمية المياه الذاهبة إلى إيران. وأعلنت طهران أن منظمة الفضاء التابعة لها حصلت على صور من القمر الصناعي "خيام" تكشف تغيير كابول لمسار نهر هلمند (بالفارسية هيرمند)، وأن السدود الأفغانية تمنع وصول المياه لإيران. وقبل أيام من اشتعال الاشتباكات قال وزير الداخلية الإيراني، أحمد حيدري، إن الحصة المائية لإيران هي حق تاريخي لبلاده وأن طالبان تعرف به ولكن تحجج بعدم وجود مياه حالياً رغم وجود المياه خلف سد كمال خان، ودعا طالبان للسماع للمسؤولين الإيرانيين بتفقد السد المذكور. كما هدد الرئيس الإيراني، إبراهيم رئيسي، حكام أفغانستان قائلاً: "لو أكده خبراؤنا نقص المياه، فليس لدينا ما نقوله. لن نسمح بانتهاك حقوق شعبنا، خذوا كلامي على محمل الجد حتى لا تأتوا للعقاب لاحقاً". وأعلنت طالبان رفضها تحذيرات الإيرانيين وطالبتهم بعدم تكرارها وتصحيح معلوماتهم حول موضوع المياه، ورفضت زيارة الإيرانيين لسد كجكي في ولاية هلمند أو سد كمال خان في ولاية نيمروز، مبررة ذلك بأن السدود تعد مراكز حساسة، وأن طالبان لن تسمح لـ"عملاء أجانب" بزيارتها. بالعودة إلى مصطفى حامد فإنه نشر مقالاً، في ٢٨ مايو من العام الحالي ٢٠٢٢، عن الأزمة بعنوان "مياه للحرب (١)" تبني فيه وجهة نظر الحرس الثوري الإيراني بشكل مستتر، فنظرًا لمكانته لدى طالبان فإنه حاول إلهاست عباراته ثوب النصح والإرشاد وجلس مجلس الحكم الحريص على منع طائفتين من المسلمين أن يقتتلوا، لكن بالتدقيق في حديثه يتضح أنه تبني وجهة النظر الرسمية الإيرانية على استحياء وحاول جعل كلامه مقبولاً بضميمه بعض البديهيات والحديث عن مواقف ومصالح تجمع طهران وكابول والتركيز على "إسلامية" كلا الدولتين، مع بعض التذكير الديني بضرورة تبدد الخلافات. في بينما ترى طالبان أن نقص الماء سببه الجفاف ونقص التدفقات من المنبع، تقول طهران إن سببه سد كمال خان، ويتبني حامد وجهة النظر الإيرانية فيشير إلى أن المياه محتجزة بسد كمال خان الذي "اكتمل قبل أشهر من الانسحاب الأمريكي"، ويعمد إلى وصف النزاع بأنه مدفوع من الخارج بالقول إنه من عمل الأمريكيين والإسرائيليين، أي أن بناء السد الأفغاني هو المشكلة وليس الجفاف. ويؤكد مصطفى حامد في مقاله على نقطة محددة وهي أن الأمر يتعلق بالالتزام بالعقود، في إشارة إلى اتفاقية تقاسم المياه، ويقول "تدفع أمريكا وإسرائيل بقوة من أجل إشعال حرب مياه في المنطقة بين الجارين رغم أن العلاقات بينهما شهدت طفرة نوعية غير مسبوقة بعد انسحاب الاحتلال الأمريكي من أفغانستان".

ويعتبر في مقاله هذا أن سد كمال خان مؤامرة كذلك على أهل السنة! لأنه يقطع المياه عن الشعب الأفغاني لأنه يمنع المياه عن بعض المناطق الأفغانية، ويعده مؤامرة على أهل السنة! لأنه يقطع المياه عن "إخوانهم البلوش السنة" على الجانب الآخر من الحدود" جنوب شرق إيران، ويخلص إلى أنه إذا فشلت طالبان في الاستجابة لمطالب طهران، فإن ذلك "سقوط أخلاقي، وهو أهم سبب لسقوط شرعية أي نظام، خاصة إن كان إسلامياً". وفي نفس المقال يعدد الأفضل الإيرانية المفترضة على كابول ويقول "أكبر قدر من الإسناد الاقتصادي الذي تلقته الإمارة بعد طرد قوات الاحتلال الأمريكي كان من الجارة إيران. وبتأثير من الموقف الإيراني فتحت عدة دول هامة أبواباً للتعاون الجدي". ويدافع كذلك عن رفض نظام الملالي الاعتراف بالحكومة الطالبانية فيقول بالحرف الواحد

"لم تعرف إيران رسمياً بالحكومة الجديدة للإمارة الإسلامية، والتي لم تعلن عن نفسها بقوة حتى الآن، فما زالت تصف نفسها بالحكومة المؤقتة. (معنى أن حكومة الإمارة لا تكاد تعرف بنفسها)". ومن البديهي أن يتبنى مؤرخ القاعدة موقف طهران إلى هذا الحد لأنه ببساطة يقيم هناك في حمامة قوات الحرس الثوري، وسبق أن تناولت "أخبار الآن" قصته كاملة وعلاقته بالحرس الثوري وأيديولوجيته الموالية للمشروع الإيراني ودوره في التواصل معحركات الجهادية السنوية ومحاولة تطويقها لمضيئيه الفرس. ويعد أبرز مثال على ذلك نجاحه مع صهره سيف العدل، الذي يقيم معه في إيران، في اختطاف تنظيم القاعدة بشكل كبير وتوجيهه لخدمة المشروع الإيراني، خاصة بعد تفرد سيف العدل بزعامة التنظيم عقب مقتل زعيم التنظيم السابق، أيمن الظواهري، في كابول الصيف الماضي. ويحاول مؤرخ القاعدة اليوم القيام بدور مشابه مع حركة طالبان - مع الفارق الكبير بالطبع بين الحالتين، فبينما يوالي طالبان في الظاهر ويعلن مؤازرته لها، وهو الذي أعلن مبaitته لها منذ عهد مؤسسها الملا عمر، لكنه يمرر وجهات النظر الإيرانية ويحاول إيجاد قبول لها لدى الخصوم الأيديولوجيin للدولة الشيعية بلغة يفهمها هؤلاء الذين لا يستمعون لإيران ولا ينون بها. وبعد نشر المقال الأول بيومين نشر مصطفى حامد مقاله الثاني بعنوان "مياه للحرب (٢)" أسهب فيه في شرح الموقف الإيراني من سد كمال خان تحديداً، متهمًا طالبان ضمئياً بالتورط في "الفتنة المائية، بعقبية تعاقدية من تصميم الاستعمار الأمريكي". ويدعو حامد الأفغان بكل صراحة ووضوح إلى عدم استخدام السد وترك مياههم تتدفق إلى الجانب الإيراني بلا ضبط لتجنب المشاكل مع إيران، مستحضرًا فكرة خيالية مفادها أن المياه تتوزع "بشكل طبيعي بدون تدخل الإنسان. فمن تلك النقطة تتدفع المياه داخل إيران مع الانحدار الطبيعي للأرض"، وهكذا يعم السلام من وجهة نظره عندما يتذبذب الماء كله بلا حساب للأراضي الإيرانية، وبالمقابلة فإن طهران نفسها لا تطالب بذلك صراحةً كما يفعل حامد الذي يبدو ملكياً أكثر من الملك، بل يطالب الإيرانيون بحصتهم المتفق عليها بغض النظر عن وجود جفاف من عدمه، أي أنهم لا يطالبون أصلًا بمياه النهر كلها في أوقات الفيضان كما يحاول حامد أن يقنع طالبان بذلك. وفي تجاهل متعمد للواقع شرح حامد أن الماء يصب "في بحيرة هامون التي إذا امتلأ تمددت داخل حدود أفغانستان، ليصبح ماؤها مشتركةً مرة أخرى بين البلدين . أي تجدد عملية تقاسم نفس الماء مرة أخرى بعد دخوله الأرضي الإيراني"، وهو ادعاء ساذج يكفي للرد عليه تذكر أن هذه المقاومة الطبيعية الموهومة لم تكن تحدث قبل بناء السد بل كانت أفغانستان تغرق في الجفاف بسبب سرقة مياهها، وحصلت طهران على أضعاف حصصها المائية ومدت المياه إلى مناطق عديدة استغلالاً لهذه الفوائض المائية المتذبذبة بلا حساب، ولم تدعها ترجع إلى أفغانستان مرة أخرى كما يزعم مؤرخ القاعدة. المريض الأول بمتلازمة طهران خلال الاشتباكات الثالث عشر بين الطرفين منذ وصول طالبان إلى السلطة في أغسطس 2021، سقط قتلى وجروح في المواجهات وقصص الإيرانيون مطاراً قدماً في ولاية نيمروز الأفغانية وسوق شعبي، بينما أعلنت الحركة عن سيطرتها على حواجز إيرانية قبل أن تتوقف الاشتباكات الدامية بين الطرفين. وفي ظل تصاعد المشادات الكلامية بين الحكومتين، نشر الجنرال مُعين، القيادي في طالبان، مقطع فيديو يسخر من تهديد الرئيس الإيراني، يظهر فيه الجنرال وهو يملأ برميلاً بالماء ويقول: "خذ هذا البرميل ولا تهاجمنا، نحن خائفون من تهديك"، وكانت البرميل من النوع الذي اشتهرت طالبان باستخدامه في التفجيرات، لذا أثار هذا التهديد استياء الإيرانيين واتهموا حكومتهم بالضعف أمام طالبان. وقد ناقشت الأوساط الإيرانية مؤخراً موضوع الخلاف مع طالبان وسبل الرد عليها، فادعت صحيفة "جمهوري إسلامي" المتشدد أن اتفاق الدوحة الذي أسس للانسحاب الأميركي من أفغانستان نص على قيام طالبان بافتتاح نزاع عسكري مع إيران لزعزعة استقرارها، وذكرت أن الحركة تحاول توريط طهران في مستنقع الحرب داخل أفغانستان، وذلك بتکليف من واشنطن. ويلاحظ هنا تشابه هذا الطرح مع مقال مصطفى حامد السابق ذكره الذي يعد النسخة المخففة من هذا الكلام لأنه لا يتهم طالبان صراحة بالعملاء لواشنطن، رغم أنه يقول إن الولايات المتحدة هي التي أشعلت هذا النزاع، ويبين أن التدخل الأميركي كان عن طريق تحفيز طالبان ضد إيران وليس العكس، ويبقى نظام ولاية الفقيه من تعمد الإضرار بالحقوق المائية للشعب الأفغاني ويشهده في دور الضحية. وذكرت الصحيفة في مقالها الذي حمل عنوان "لا تلعبوا في ملعب طالبان"، أنه من الضروري اتخاذ موقف حاسم ورادع تجاه الحركة وإن كان هذا الموقف لا يعني بالضرورة العمل العسكري، وأشار المقال إلى أن طالبان تبنت ردين على طهران بعد تهديدات رئيسها لها؛ الأول موقف رسمي تمثل في إصدار بيان دعا لتجنب التصعيد وأكد حرص الحركة على الوفاء بالحصة المائية، بينما تمثل الرد الثاني في استهزاء مسؤولي الحركة من تهديدات إيران وتأكيدهم الاستعداد لمواجهة عسكرياً، وهو ما يظهر رغبة الحركة في توريط إيران في صراع عسكري، وفق الصحيفة. وبصفة عامة يمكن تلخيص علاقة إيران بطالبان بمنحنى يتحرك صعوداً وهبوطاً بشكل عكسي مع مدى قوة الحركة؛ فعندما وصلت إلى السلطة في التسعينيات عادتها إيران ودامت

خصوصها الأفغان، وعندما كانت الحركة تناضل ضد الأميركيين والحكومة الموالية لهم دعمتها إيران، وعندما عادت إلى السلطة عام 2021 عادت الخلافات معها من جديد، أي أن الثابت في هذه المعادلة أن طهران ظلت تدعم الطرف المعارض لأي حكومة في كابول أياً كان شكلها. وإذا أخذنا ملف المياه كمثال، فقد قطعت طالبان المياه عن إيران في التسعينات، ووصل الطرفان إلى حافة الحرب عام 1998، وبعد الغزو الأميركي لأفغانستان عام 2001 وسقوط حكم طالبان بدعم من طهران، دعمت الأخيرة الحركة كثيراً خلال مقاومتها للاحتلال الأميركي لأنها كانت تشن هجمات مستمرة ضد المشروعات التي تشيدها الحكومة الأفغانية المدعومة من واشنطن، ومن أبرز هذه المشروعات سدود المياه غرب البلاد، فكانت طهران تستفيد من تدمير تلك السدود فتحصل على كميات كبيرة من المياه تفوق حصتها بسبب عجز الحكومة الأفغانية عن ضبط تدفق الأنهر. وكان مسؤولاً الحكومة الأفغانية السابقة يقولون إن طهران تستخدم طالبان لخوض حرب بالوكالة على المياه وتعطيل مشروعات التنمية بما في ذلك سدود المياه لإبقاء أفغانستان غير مستقرة، وحصلت طهران على كميات كبيرة تبلغ أضعاف حصتها بسبب نقص السدود الذي جعل من المستحيل التحكم في كمية المياه بينما عم الجفاف معظم المناطق الأفغانية، وانتهكت إيران الاتفاقية بشكل فج. جدير بالذكر أنه في الوقت الذي تطالب طهران الأفغان بالالتزام بأحكام القانون الدولي الخاصة بالأنهار فإنها ترفض تماماً الالتزام بذلك الأحكام وتأتي التوقيع على اتفاقات تلزمها بها لأنها تسرق مياه العراق وتمتنع تدفق الروافد المائية لنهر دجلة، وفي الوقت الذي تتحدث فيه عن التصحر وأزمة المياه التي تمر بها تستخدم السدود لتعطيش الأقاليم داخل الأرضي الإيرانية، ويسرف الحرس الثوري على إنشاء السدود بداعي عنصرية فيحرم الأقليات العرقية من المياه التي تجري في أقاليمهم ويحول أنهارهم إلى المدن ذات الأغلبية الفارسية الشيعية. وتعمل إيران منذ سنوات طويلة على تكوين ميليشيات شيعية مسلحة موالية لها داخل أفغانستان، وبالتالي استغلي وجود جالية أفغانية كبيرة لديها وجندت الشيعة منهم في لواء فاطميون الذي يقاتل منذ سنوات في سوريا لدعم نظام الأسد، وأصبحت الأرضي السورية ساحة تدريب وتجهيز لهذه القوات التي من المقرر أن ترسلها طهران إلى أفغانستان في الوقت المناسب، إذ تم إعدادها لتكون ورقة ضغط على أفغانستان. وعملت طهران على التلويع بهذه الورقة لإرهاب جيرانها الشرقيين وابتزازهم بها في مسائل الخلاف كقضايا المياه، ومؤخراً صدرت تهديدات بهذا الخصوص وقال وزير الخارجية الإيراني، أمير عبد اللهيان، إنه إذا لزم الأمر سيتم استخدام أدوات الضغط لجبار الحكومة الأفغانية على التعاون في ملف المياه.